نبيلة وناس

(17)(بالفطرة)

إنها المرة الأولى في حياتي التي أرفض فيها أوامر والدتي.

بالرغم من انصياعي التام لها، إلا إني رددتُ عليها رافضة، وتضرّعت لها مستعدة للموت، على أن أحرِم أحدهم حياته، وأُهْلِكُ من أحببتهم وعشت بينهم سنوات طويلة أراقب أطفالهم وهم يكبرون بقربي، حتى مرحلة نضجهم.

إنهم شباب قرية النهر.

لطالما سعدتُ وأنا أراهم يلعبون ببراءة متناهية، لا يعلمون من تكون تلك التي تبتسم لهم برضى واهتمام، وبسذاجة مطلقة كانوا يمنحونا أنا وأمي المتوحّشة ثقتهم التامة، لم يعرفوا حقيقة الفتاة التي تظهر بينهم وتختفي، وتراقب في صمت يومياتهم، وهي تخفي شخصيتها المخيفة؛ كونها بذرة شر وُلدَت تحت ظل أعتَى النداهات وأشدّهنّ ضراوة، تتجول بينهم صباحا متخفية في زي فلاحة مليحة الوجه، تلبّي حاجيات الفلاحات وتحضرها لهنّ، وفي ظلمات الليل تفترس أزواجهن وتيتّم أبنائهن، والأدهى من ذلك: تبكي وتنوح معهن، وتتمنّى لهن الصبر والسلوان، لم تُبقِ بينهم رجلًا أو شابًا، حتى جاء الوقت الذي كبُرَ فيه الصغار وتغيّرت فيها أجسادهم الطريّة لتزداد صلابة وقوة.

ولأنها قرّرَت أن تختبرني وترى قدراتي كندّاهة ستخلفها قريبًا، فموعد رحيلها قد حُدد، ها هي الآن تحاول إقناعي قائلة:

– لا تنسِي أنه مكتوب علينا يا صغيرتي الساذجة، والحياة تنصف الأقوى وتسحَقُ الأضعف فيها، ومن يستمع لهَوَاه يسير طواعية نحو حتفه.

لم أقتنع بكلامها، وجاوبتها بحنق:

– من نكون حتى ننهي حياتهم عشوائيًا؟ أين الإنصاف في أن تبطشِي برجل ضعيف نتيجة انصياعه لكِ رغمًا عنه؟

ابتسمت في هدوء وردت:

– لا تنسي أنكِ ندّاهة ولستِ من البشر، رغم أني في بعض الأحيان أشكّ في ذلك، ربما هي لعنة أحد العرّافات التي الْتَهَمَت أحد أبنائها سابقًا أصابتني لأنجبكِ شوكة في حلقي لا أقدر على إنهائها ولا إقناعها؛ لأصدم بحبك المُخزِي لهم.

ورمقتني باشمئزاز ظاهر، واختفَت في البحيرة، وتركتنِي أقف متهالكة لا أعرف بالضبط وجهتي، وأنا أحسّ كلماتها النارية تعتصر مخّي، ونسمات الليل الباردة تهز خصلات شعري الطويلة المتساقطة على جسدي، الذي لم أغيّره ولو لمرة طوال تواجدي بالقرية، وفكرة واحدة عالقة برأسي، والتي تتمثّل في إيماني بمبدأي الأزلي في أنني مستحيل أن أضرّ مخلوقًا بشريًا أبدًا، داعية الله أن لا يسمع صوتي أحد من الذكور، وحتى إن حدَثَ ذلك فلن أفترسه.

ومشيتُ وأنا أجرّ أذيال الخيبة والخوف يسري في عروقي، عندما تذكرتُ كلمات أمي التي نبّهتني أن موعد تحوّلي إلى نداهة كاملة سيكون الليلة؛ لأني بلغت سن الرشد القمري، وأن حلقي الملعون بات كاملًا لإطلاق أول تنهّداته لصوت النداء الموعود.

وزمَمْتُ بحركة آلية شفّتي، وطردتُ الهواجس من مخيلتي، ثم خمّنتُ بيني وبين نفسي أنه لا يمكن نداء أحد من الشباب الطيبين في مثل هذه الساعة المتأخرة، لا بد أن معظمهم يغطّ في النوم العميق،

ولأني أعرفهم فردًا فردًا جزمتُ بذلك، وحاولت ألا أتذكر أي اسم منهم؛ حتى لا تتوارد أفكارنا ويحصل المحظور.

لكن هيهات.. لقد فات الوقت ولم أشعر إلا وتفكيري مُركّزٌ في (طه)، الشاب اليتيم الذي طالما كفَفتُ له دموعه وواسيته لنصبح مُقرّبين جدًا بعد ذلك، وهديّته التي صنعها لي تشهد على تودّده، لا.. مستحيل.. لقد ركزتُ أكثر أني أحسّه ينصاع وعقله يغيب، لماذا لم ينَمْ ذلك الساذج؟ ما هذا الصوت الذي يصدر مني؟ ارحمني.. لا تستمع إليه يا (طه)؟ أرجوك.

ولكن لم تمضِ هنيهات معدودة حتى رأيته يتقدّم نحوي، يجرّ رجليه ويخطو آخر خطواته نحو قدره المحتوم، وعيناه شاخصتان، ولم أقدِر على التوقف ولا هو غيّر اتجاهه.

ذلك الشاب البريء، بسمرته المحببة، وسواعده القوية، ونظرة الطفل المعهودة منه، يقف أمامي مخدّرًا، أغمضت عيني وأنا أحسّ فجأة بجلدي يتمزّق، وقلبي معه في نفس الوقت؛ لتبرز لي أنياب تخرج من فمي، الذي فُتِح لآخره دون إرادتي.

قاومتُ التحوّل بشراسة وأنا أصرخ.. لأرضخ في الأخير وأنا أقول بحسرة:

– آسفة!

وفي أوجّ تحولي أيقنت أن الذي أطلق الوحش بداخلي لا يستطيع ردعه أبدًا، ولا أنكر أني في نفس الوقت شعرتُ بقوة رهيبة تشتعل وتنذر ببداية عهد جديد لوحش رهيب لا يضاهيه مخلوق، وحش تغذّى جيدًا من حب ضحاياه وانتصر على ضعفه ومشاعره لتنتصر الغريزة الطبيعية فيه، وتطلق معه جماح غريزة الافتراس.